

تفكيك منظومة الغلو

مقال يبحث في عمق البنية الفكرية والتنظيمية والنفسية لمنظومة الغلو

أ/ عباس أبو تيم شريفة

من أخطر الأزمات التي تعاني منها الثورة السورية هي الأزمة الفكرية المتمثلة بجرثومة الغلو التي أدرك الطغاة مفعولها العجيب في اجهاض الثورات فبدأوا بتغذيتها واستثمارها.

كثير ممن يحاربون الغلو يرفضون تفكيك معادلته إلى عواملها الأولية لأن ذلك سيلزمهم بإسقاط رموز ومدارس ومناهج صنمية طالما عنت الوجوه لها من دون هدي السلف، والكثير منها يتجه لإبطال المخرجات والنتائج دون المساس بالمقدمات والقواعد، وينشغل بتحليل المفردات دون توقيف آلة الانتاج.

عندما تظهر المفاصلة العقدية بين الجماعات الاسلامية بعد الخلاف السياسي، فإنك تدرك أن الخلاف فيما بينها خلاف سياسي لبس لباس العقيدة أو أنه خلاف عقدي أخفي لمقاصد سياسية.

تنبه النخبة من الجماعات الإسلامية لخطورة الفكر الخارجي من بعد دخوله في حيز الانحراف السلوكي يدل على أنهم يفكرون بطريقة متخلفة

حتى عن العوام من أهل الفطرة السليمة الذين يدركون فساد المنهج ببساطة الفطرة فما يميز أهل العلم عن غيرهم إدراك الفتنة قبل وقوعها فإذا وقعت عرفها العالم والجاهل .

لا ننكر أن للغلو أسباب نفسية في صناعته فقد كان لسجون الطغاة وظلم العتاة وقهر الجبابرة ومشايخ التمييع والانبطاح الكيل الأوفى في ترويح بضاعة الغلو، فكثير من المظلومين قد يتحولون لظالمين عندما يعز الانصاف .

الإرهاب الفكري الذي يمارسه عبيد الليبرالية وعبيد الجامعة التي ينتعلها الطغاة سيقسم المجتمع إلى فئة مغرقة في الإلحاد والبغض للدين، وفئة مغرقة باللغو والتكفير كرده فعل على محاربة الدين الحق، وعلى من يريد أن يفرض لونا من التدين على الناس كافة، فالكبت الفكري والتربية القمعية تجعلنا نحمل عقد الغلو من طفولتنا فقد رأينا كثير من هواة الإجرام التحق بالمارقة لتنفيس رغبة مكبوتة في ممارسة الإجرام باسم الدين والجهاد. وبذلك يغيب تيار الاعتدال ويتفجر الصراع الذاتي في داخل المجتمع حتى في الاسرة الواحدة

تبعا لتعدد أسباب نشوء الغلو تعددت وسائل العلاج الناجع القاطع، والاقتصار على وسيلة علاج واحدة ستزيد من استفحاله لذلك كان الجمع بين مناظرات ابن عباس - رضي الله عنهما - لدحض شبهات من التاث بفكرهم وهو يبتغي الحق، وبين سيف علي - رضي الله عنه - ليحصد رؤوس من لم تبرأ بالحجة فكان السيف لهذه الرؤوس شافياً حيث لم تجدي

معه الحجة.

كما أن لكل فعل ردة فعل مساوية له بالقوة ومعاكسة له بالاتجاه، فمن المعلوم أن أول الفرق المبتدعة التي ظهرت في صدر الإسلام هم الخوارج فكان الإرجاء من آثارها وعوارضها. إذا علمنا أن الخوارج والغلاة أصل الداء والإرجاء من عوارض العلة فإن الاتجاه لعلاج العرض دون المرض كمن يضع العربة أمام الحصان ويقلب المعادلة، لذلك تجد هؤلاء الغلاة يرفعون عقيرتهم دائماً بخطر الإرجاء وضرورة محاربة الإرجاء ولا ينبسون ببنت شفة في محاربة الغلو إلا على استحياء.

فمثل الغلو والمارقة كشجرة خبيثة كلما زدت في تقليم أغصانها لتزين طلعتها الشيطاني اشتدت جذورها فلا غنى عن اجتثاث أصلها من الجذور حينذاك لن يكون لها قرار (قتل عاد وإرم) هو العلاج النبوي فلا نسرح بدعوى اصلاحهم والتخلي بالحكمة والروية .

يكاد يكون التلازم مطرد بين افتراق الأمة وتشرذمها وظهور المارقة واستفحالها وبين اجتماعها وانجبارها، فكما أخبر الصادق المصدوق أنهم يخرجون على حين فرقة من الناس لأن الميكروبات الطفيلية لا تتكاثر إلا في الفراغات ولا تتغذى إلا على جسد ميت والمادة لا تقبل الفراغ بحال.

من الخطوات الضرورية لمحاربة التيار الخارجي المتنامي في الأمة أن يقوم مشروع الأمة الشعبي والرسمي بتبني قضايا الأمة بقوة فالشباب

المراهق المتحمس أمام العجز الرسمي يرى في تيار الغلو البديل وبارقة الأمل نحو الحلم الاسلامي الذي يصبو اليه. وهو يرى الامة في مأزق الغياب الحضاري لمشروع جامع ومقنع للأمة فالمشروع الاسلامي الرشيد هو من يردم الهوة و الشقق والافتراق بين مكوناتها التي تنموا بنيتها جرائم الغلو والتكفير

ينبني الفكر الغالي على منظومة فكرية تتعامل تعامل ظاهري مع النصوص بإطلاقات وعموميات وهو عمدة ما يعتمدون عليه من الأدلة و النصوص العامة والمطلقة والمتشابهة والمجملة وعلاجهم القاتل لشبهاتهم تخصيص العام، وتقييد المطلق، وإحكام المتشابه، وتفصيل المجمل.

في معسكرات الغلاة يغيب علم السيرة النبوية فيخرج أقوام جاهلون بالفقه الحركي، ويغيب علم أصول الفقه فيخرج من يتعامل مع النص بظاهرية، وبتغيب السياسة الشرعية تكون النتيجة = غلو وتكفير.

إن تحكم العقلية الحزبية بالنص يحرف الفهم عن مقصد الشارع إلى تبرير سياسة الحزب فالغلاة يقطعون أحداث المعارك والاغتيالات من السيرة، والمرجئة يقطعون أحداث الرحمة والعفو، وكذلك التعامل مع النصوص فبينما يقف الغلاة مع نصوص الوعيد وينسون نصوص الوعد يتوقف المرجئة مع نصوص الوعد. وينسون نصوص الوعيد

لست مع الذين يشخصون ويفسرون علة الغلو بمؤامرة مخابراتية لأن الفكر

الخارجي ذاتي التدمير يتشكل من تنازع الشهوات والشبهات وقصار ما يفعله الأعداء هو القدرة الفائقة في استخدام هذه التشوهات الفكرية واستثمارها في ضرب مشروعنا الحضاري وإبقاء مسافة أمان بينها وبيننا من خلال اشغالنا بهذه السرعات وجعلها تتحرك بتحكم عجيب من خلال إدخالها في مسارات حرب الموارد لتسمن ومن ثمة لتستعمل في حرب وكالة يحصد ثمارها الأعداء، فكان نصب الفخ على الموارد بما يشبه طعم الصياد ومن خلال الآلة الاعلامية الهائلة في استقطاب الجنود وترويح الفكر. وتأجيج عواطف الاغرار وعند الحاجة لتشذيب المشهد تشن عليهم حروب استعراضية تزيد من التعاطف الشعبي معها بدلا من إضعافها كما كان للمجاملة والمخادعات الإعلامية التي تصور هؤلاء المجرمين بما يشبه حال الصحابة الفاتحين أثرا مدمراً على عقول الشباب بحيث صنعت منهم رموزاً يقتدى بها من شباب الأمة، فالأعلام الجهادي لم يكن يشكل اكثر من 20% من الحقيقة وكانت تسيره التنظيمات بما يخدم دعايتها. فتضخم من خسائر العدو وتقلل من خسائرها بل انها تقلب كثير من الهزائم الى فتح مبين

فمن ظن أن المارقة كانت في التجربة العراقية قائمة بالقسط وطراً عليها الانحراف في التجربة الشامية فقد أبعث النجعة، فجرائمها في الشام لا تعدل عشر ما ارتكبته في العراق، ولكن كانت بعيدا عن الإعلام، وبنصح الخفاء والتكتم حتى لا تتهم أنك تطعن في المجاهدين. اسدل ستار سميك على جرائم مفعجة

الخلاصة

لا ينبغي لنا الاقتصار على علاج واحد في مواجهة الغل وتبعاً لتعدد أسباب تشكل الظاهرة وإلا فإن الحرب خاسرة، فبتفكيك المنظومة الفكرية بدحض شبهاتهم وإدارة الحرب الاعلامية وكشف إجرامهم والقيام بمشروع حضاري يكون مقصداً لتفريغ طاقات شباب الأمة، وإعادة النظر في وسائلنا التربوية، ومقاومة الطغيان (المنتج الأكبر للغلو)، ومن خلال العمل الأمني الذي يحصد رؤوس أكابر مجرميها هنا يأتي العمل العسكري ناجحاً في اجتثاث شجرتها الملعونة الخبيثة.

والله أعلم